

# القوات اللبنانية

جهاز التنشئة السياسية



## جرميّ البراءة أنطوانيت شاهين

جويس ثابت

مكتب الأبحاث - دائرة الإعداد والتدريب - جهاز التنشئة السياسية - حزب القوات اللبنانية



ما أن أطبق النظام السوري على لبنان، بداية التسعينيات، حتى راح النظام الأمني اللبناني - السوري المشترك يضيق الخناق على كل من يرفض سطوة سوريا على القرار اللبناني. دفع حزب القوات اللبنانية الثمن الأعلى فترة السلم، حين راح النظام الأمني يلفق التهم في حق أعضائه، فيعتقل واحد ويخطف آخر ويفتال غيرهم، دون أي اعتبار لقانون أو حق أو إنسانية.

دفعت أنطوانيت شاهين، ابنة الـ22 سنة من العمر، ثمناً باهظاً في مقابل صلابتها، ورفضها الإذعان لشروط السجان، في موقف بطولي استمر خمس سنوات متحملة عذابات السجن، مشقة المعتقل ووضاعة السجان.

فيما يلي، ملخص لكتاب أنطوانيت شاهين، التي تروي فيه قصتها مع الاعتقال، وتعترف فيه بأن "جرمها البراءة".

\*\*\*

في قلبي سماح وغصة؛ السماح لأنني أعيش الحب، ومن يدركه الحب لا يعرف سواه. أما الفصة فعلى اختصار الحياة لإنسان في عنوان صحيفة: "القبض على... والبراءة ل..."، وما بين العنوانين وما بعدهما لا تعويض ولا من يعوضون.

إسمي أنطوانيت شاهين، ولدت في 26 حزيران 1971، من كفرعبيدا (البترون). صغيرة ومدللة أختوتي، تربيته في جوّ من الحزم دون القسوة. لم يعرف منزلنا الكذب الذي كان أكثر ما تمقته والدتي، ولم يكن لنا ثروة إلا إيماننا وذرعتي والدتي القويتين ما يكفي لصناعة وبيع الخبز، كما همّة والدي في وظيفته في البلدية، وصبره على البحر حتى يزودنا بالسّمك، فنتعلم بأن الله يدبرنا.

دام المرح يسود السهرات التي تدور حول كؤوس العرق والسّمك المشوي على الحطب، ودامت تسيير على نسق واحد، وكنا سعداء دون أن نحري.



## الفصل الأول: سنوات الحرب

مع بدء الأحداث جيء بأخي ميشال إلى أمي جثة هامدة، فأخذ بموته كل الضحكات، وكجميع شبان القرية الذين اعتراهم الفضب والرعب، شارك أخويّ أنطوان وذاك في الدفاع عن المنطقة. ما أن مرت فترة قصيرة من الحرب حتى قدمت دبابات تابعة لفرقة كومندوس سورية - فلسطينية لاجتياح كفرعبيدا، فغادرها الرجال والتجأوا إلى أحد الأديرة في أعالي جبيل، فالتحق بهم أنطوان وذاك. أما أبي، فرفض مغادرة منزله، في حين سلكنا أنا وأمّي وأخواتي الثلاث درب التهجير.

طيلة عشر سنوات، توزعت حياتنا بين جانبي منطقة المدفون؛ بين منزل أبي ومنزل أمي، بين كفرعبيدا وجدّاييل، حيث تقيم أمي وأختي الكبيرة اللتان تقضيان وقتهما بانتظار عودة أخوتي الرجال. وهكذا، أمضيت سنوات الحرب متأرجحة بين المنزلين الذين سكنتهما عائلتي.

حذوت حذو أخوتي الكبار، فلم أقدر مثلهم على تحمّل الظلم، وسارعت دوماً للدفاع عنهم هم أصغر وأضعف وأشد فقراً مني. كنت أراني منذ ذلك الحين مرتدية الثوب الأسود، وما أن نلت شهادة البكالوريا حتى سارعت إلى الالتحاق بالجامعة اللبنانية، فرع الحقوق. كنت أُلزم البيت ولا يثير الشبان اهتمامي فعلاً، كما لم أعص أوامر أهلي قط، وأخشى أن أخيب ظن الآخرين بي.

ثم نشبت معارك بين الجيش بقيادة الجنرال ميشال عون والقوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع، وسرعان ما قضت صراعات أخرى على طموحي في متابعة دراسة الحقوق، فانكفأت إلى جبيل وتسجلت في فرع المعلوماتية. ثم ما لبث أخي جان الذي التحق بالقوات اللبنانية أن أتى غالباً لزيارتنا هناك. وفي عام 1992، حُلّت القوات اللبنانية وبدأت مرحلة المطاردات السياسية التي استهدفت تبيد كل بؤرة معارضة للنظام القائم.

## الفصل الثاني: الاعتقال الأول

أما المعارضون السياسيون فهناك على الأقل ثلاثة منهم في منزلنا، فأخوتي كانوا أعضاء في القوات اللبنانية، لكنهم باتوا، بعد الحرب، يبحثون عن عمل ليعتاشوا منه. عمل أخي جان لفترة مع صهرني في مجال البناء ثم غادر إلى قبرص في أيار 1993، على أمل الذهاب إلى استراليا حيث كانت تقيم عائلة خطيبته. كان مريضاً وأعلمنا بأنه بحاجة إلى المال، طالباً من أهلي أن يبيعوا



ممتلكاتهم. ولثلاث مرات سافرت إلى قبرص وبحوزتي المال. بعد فترة اتصل بنا جان من سيدني، ثم عدنا واتصلنا به بدورنا عبر ستترال جبيل.

في 22 كانون الأول من العام نفسه، اعتقل جاك؛ أخي، الذي كان قد أتى ليسكن عندنا مع زوجته وطفله بعد أن شعر أنه مُلاحق. عندما جاء الدرك لاصطحابه، طلبنا منهم أنا وأمي مرافقته، فتم استجوابنا أيضاً. ولكن مخابرات الجيش كانت مهتمة، في الواقع، لأمر أخي جان. سُمح لنا في الرحيل، فيما أودع جاك السجن. عشية الميلاد، عاد جاك إلى المنزل وقد أوسع ضرباً، وبعد أسبوعٍ أدخل المستشفى بسبب حالته الصحية المزمنة. لم يستهدف الاستجواب الذي أخضع له إلا التحري عن جان ومواعيد تنقلاته ومكان إقامته، وطبيعة المسؤوليات التي تولاهها في القوات اللبنانية.

جرى الاعتداء على كنيسة سيدة النجاة في شباط، وفي 23 آذار حُلّت القوات اللبنانية. أوقف تسعة مشوهين بناءً على طلب القاضي جوزف فريحة. حُكم على قائد القوات اللبنانية، وسُجن بدوره في زنزانة وزارة الدفاع ووجهت إليه عدة اتهامات مقرونة بنشاطاته. وعشية اعتقاله، أجرى جعجع مؤتمراً صحافياً نفى فيه انتمائي إلى القوات اللبنانية. وطيلة الاستجوابات، طُلب مني أن أعلن أنني شاهدت أخي جان وأصدقاءه في لبنان لحظة حصول الاعتداء على الكنيسة. لكنني صمدت أمام تجربة الاستجواب المزيّف، بالرغم من قساوة وأصناف التعذيب التي خضعت لها.

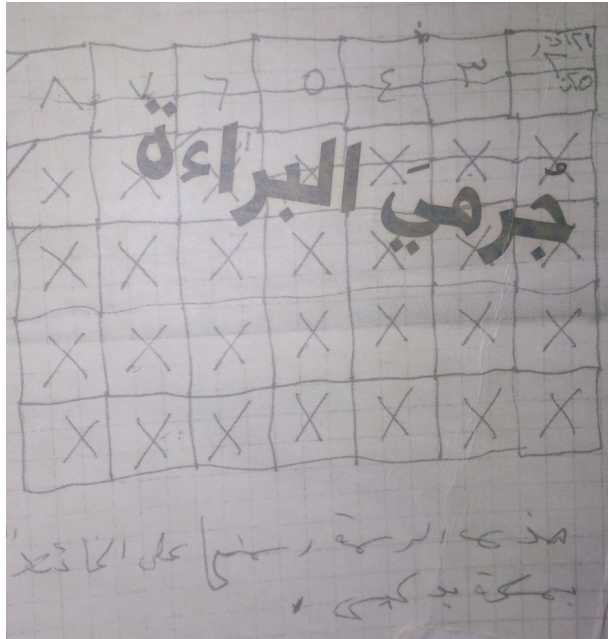
في مساء 19 آذار، كنا أنا وأمي وجاك نمضي السهرة سوياً، أتى مدنيون وطلبوا التحقيق معي في مخفر الفيदार. سألتهم أمي مرافقتي، فأخضعنا للاستجواب، وكما على الدوام حول أخي جان، ثم، بعد ساعات، أعادونا إلى منزلنا. وفي اليوم التالي، اقتحموا شقتنا ونقبوا في ألبومات الصور وبعثروها مواطين تحرياتهم عن جان.

في 21 آذار 1994، يوم عيد الأم، تناولت القهوة مع أمي وتأمّلتها، وتساءلت ماذا بإمكانني أن أفعل لهذه المرأة التي لا تطلب سوى أن يعيش أولادها بسلام. في هذه اللحظة رنّ الهاتف، تحدث إليّ رجل من جهاز مخابرات الجيش وطلب مني أن أستعد لأن موكباً سيأتي لاصطحابي إلى بيروت "من أجل تحقيق صفيّر". وصلوا وقذفوا بي في السيارة، قبلت والدتي وطمأننتها قائلة: "كالعادة، ماذا تريدون أن أفعل يا أمي...". لامست بأطراف أصابعي قدمي مار شربل الذي يحرس تمثاله مدخل منزلنا المحتاج إلى شفاعته.



اصطحبتني السيارة إلى وزارة الدفاع، وأجلسوني على كرسي وعصّبوا عينيّ. جاء أشخاص عديدون، وسألوني عن أخي جان، واصلت الإجابة وبعدها أصدوني طابقيّ وعياني لا تزال معصوبتين، إلى أن سمحوا لي أخيراً بأن أرى النور. ثم عادوا فعصّبوا عينيّ ثم أنزلوني أدراجاً لا تنتهي. عندما فتحوا عينيّ وجدت نفسي في غرفة فارغة ليس فيها إلا غطاء موضوع على الأرض. وحدها الصرخت القريبة للمساجين الذين يخضعون للتعذيب ذكرتني بواقعي المشؤوم. شعرت بأن ما يجري ليس حقيقياً، وبأنني مهانة. عندما أخرجوني من الغرفة، عصّبوا لي عينيّ مجدداً، وكنت أدوس فوق الأجساد ولا أعرف أنها أجساد مساجين قذفوا أرضاً.

كان هناك محقق تظاهر بأنه يهتم بقص شعري، ثم لطم رأسي بالحائط. كانت المرة الأولى التي أخضع فيها لجلسة التعذيب التي تدعى "بلانكو" ، وكان موجعاً جداً. فقدت مفهوم الزمن وعشت أيامي في رفقة الجرذان. على أحد الجدران، كتب السجين الذي سبقني: "السجن للكلاب وأنا من البشر". انتزعت مقبضاً قاسياً من أحد أكياس البلاستيك وحفرت شبكة لأشير في مربعاتها إلى الأيام وفقاً للحلقة المنتظمة لحصص الطعام التي كانت تُرمى لنا. وطلتني حزمة تحوي قمصاناً خفيفة أنبأتني بقدوم الربيع. تناولت حصص الطعام من الحبوب والبطاطا المسلوقة الموضوعة على الأرض متجاوزة شعوري بالقرف.



1 يتم وضع اليدين مكتوفتين خلف الظهر، مع الإبقاء على العينين معصوبتين. وعندها يتم رفع الجسد بكامله بواسطة اليدين بحبل موصول إلى سقف الغرفة.



في البداية، استُجوبت بخصوص أخي جان، ثم لم يعد أحد يكثرث بوجودي. صرت دميمة وأخشى ألا يتذكر أحد أنني موجودة. إنها حالة أشبه بالموت، يبدو لي أحياناً أن أخي ميشال الشهيد يسهر عليّ ويمدني بالشجاعة وأنا مدفونة حيّة.

في شهر نيسان أتى أحد المحامين لزيارتي، كانت قد أرسلته النقابة مصطحباً كاتب عدل فوَقعت على الوكالة. وبفضل هذا المحامي، استطاعت أمي أخيراً زيارتي، فبكيت، لحظة اللقاء، حتى شقّ النفس. وبعد رحيلها، أتى شخص آخر لزيارتي، إنه المطران المعروف بشارة الراعي، انتدبته البطريركية المارونية لزيارتي والاطمئنان عن صحتي. طلينا سوية ولم أطلب شيئاً إلا أن يعطيني الله نعمة الصبر لأستمر في الصوم. من صميم سجنني، قمت بنذر لن أخونه أبداً: أن أمشي حافية القدمين في كل أسابيع الآلام التي ستمر عليّ في حياتي شرط أن أخرج من هنا وأرى من جديد ضوء النهار.

في نهاية شهر نيسان، اقتادوني إلى غرفة وسمحوا لي أن أرى عبر بابها رجلاً معصوب العينين جالساً في إحدى الزوايا، لقد كان سمير جعجع. أوقفوا قائد القوات اللبنانية، وقالوا لي "لا خلاص لك... لا أحد يستطيع فعل شيء لإنقاذك". اجتاحني شعور باليأس لأنها نهاية العالم.

في 28 نيسان، عيّنت لي نقابة المحامين محامي جديد، امرأة تدعى سيدة حبيب. ذات يوم سألتها عن التهمة الموجهة إليّ، فهزت المحامية طليياً متديلاً من عنقها، ولم تستطع التعبير عن رأيها بحرية. أنا متهمة بالمشاركة في الاعتداء على كنيسة سيدة النجاة، في الذوق - كسروان، مع أنني لا أعرف شيئاً عن الموضوع.

في 6 أيار، سمعت خطوات تقترب، وفتح حارس الباب وأخرجني. أعطاني كيس أغراضي وطلب مني التوقيع على تنازل. رحت أتأمل الباحة والسيارة التي ستعيدني إلى منزلي.

عند وصولي إلى جيبيل، طوّقني الأهل والأصدقاء، وانهالوا عليّ بالأسئلة. البعض اعتبرني مذنباً فشعرت بالخجل. وعلمت بما حدث أثناء اعتقالني، وهو أن جان بات يُعتبر المشتبه الأساسي في الاعتداء على الكنيسة، فيما أعرف جيداً أنه كان في استراليا آنذاك. كان لابد من قيام النظام الجديد القائم بأي شيء، فيبرر تصفية غير المرغوبين فيهم.



اكتشفت معنى الوحدة الحقيقية، بعد أن ابتعدت عنّا كل الناس، ما عدا صديقتين مقربتين وبعض الجيران والأقارب. شعرت أنني مهانة لا أقوى التحدث عن هذه التجربة، فقد كنت في الثانية والعشرين من العمر، وها قد سرقوا لتوهم من عمري 46 يوماً.

## الفصل الثالث: من المخفر إلى السرايب

غادرت زنزانتني في وزارة الدفاع في الخامس من أيار 1994، دون أن يتمكنوا من إمساك أي دليل ضدي. في 9 حزيران قُرع بابنا فجأة، عندما كنت أتقاسم السرير مع أمي وحالة الرعب التي لا تفارقني، وفي الغرفة الأخرى كان أخي جاك ينام مع عائلته الصغيرة، وهو لا يزال يعاني آثار التعذيب. سمعت أصوات رجال تقترب، فبدأ قلبي يخفق بقوة، خشيت أن يكون جاك هو المطلوب، وهو عاجز عن الخضوع لدروب تعذيب جديدة. ارتديت ثيابي ثم خرجت لأنوب عن أخي، لكن أحد الرجال كان في طريقه إلى غرفتي. كنت أنا المطلوبة. فتش هؤلاء الرجال بيتنا، ووجهوا ضربة في عصاهم إلى تمثال العذراء فقطعوا رأسه. فسألتهم أمي "لماذا؟"، فقالوا: "بحثاً عن المخدرات". قال رجال الدرك "سنأخذ من وقتك 10 دقائق فقط"، واقتادوني إلى مخفر جونييه.

بدأ استجوابي عن لائحة الأسماء التي لم أكن أعرف أياً منها. ثم استرسلوا في أسألتهم عن جان: "متى رأيته لآخر مرة؟... أي منصب كان يتولى في القوات اللبنانية؟... أين يجتمع مع الحكيم ورفاقه؟". أجبتهم بما أعرفه، وأخيراً أمرهم مفوض الشرطة: "خذوها وأجبروها على الاعتراف بالحقيقة، فلننهى الموضوع". ثم أضاف "إذا أصرت على موقفها، اعملوا لها فرّوج"<sup>2</sup>. وهذا ما حصل.

من بعدها أعادوني إلى عند مفوض الشرطة، وهنا كانت المفاجئة الحقيقية، سؤال جديد تماماً: "ماذا تعرفين عن الأب سليمان؟" عندئذٍ إنهرت بالبكاء وتوسلت أن يتركوني، فأنا لا أعرف شيئاً. عرفت لاحقاً أن هذا الكاهن قُتل على يد عصابة من الأشرار في ديريه في عجلتون - كسروان. أدخل شاهد وسؤال: "أهذه هي؟"، فأجاب "نعم". وعاودوا استجوابي باستخدام أسلوب الفروج والبلانكو.

<sup>2</sup> يُمَد المعتقل أرضاً، ويربطون يديه خلف ظهره، ويضعون ساقيه على لوحة مرتفعة جداً ويجلدونه على راحة قدميه.



ذات ليلة، رأيت جماعة من الرجال أيقفي الثياب. قدّموا لي وثيقة لأوقع عليها، لأعترف أنني شاركت في جريمة قتل الأب سليمان من جهة، وأن أخي جان كان في لبنان لحظة حدوث جريمة الكنيسة من جهة أخرى. كنت منهكة ومستعدة للتوقيع. طليت طالبة المغفرة فلم يعد بإمكانني الصمود أكثر. قدموا لي قلماً وأشاروا إلى المكان الذي يجدر بي أن أوقع فيه. حملت القلم لأوقع وأنتهي من هذا العذاب، لكن القلم سقط من يدي قبل فوات الأوان، فصرخت عالياً: "أقتلونني لن أشهد زوراً".

ثم أعادوني إلى زنزانتني. لم يقدموا لي الماء لأشرب، بل صبوه على جبهتي، وطلبت طعاماً فرموا الخبز في المرحاض. ثم سكبوا ماءً تغلي على ساقي المنسحقة أصلاً تحت الضربات. دامت هذه المعاملة ثمانية أيام، وبعدها اقتادوني إلى قصر العدل، حيث تواجعت مع الشاهدين "سعد" و "رشيد" اللذين اعترفا أنهما اتهماني زوراً تحت طائلة التعذيب. لاحقاً كتب لي سعد رسالة مؤثرة طلب مني فيها أن أغفر له وأصلي من أجله. ومع ذلك أصدر القاضي مذكرة توقيف بحقي طالباً وضعي في سجن انفرادي. وعند الصباح جاؤوا ليعلنوا لي نقلي إلى سجن النساء.

## الفصل الرابع: سجن النساء

وضعوني في غرفة تقطنها سجينات، ضيقة بالكاد يستطيع المرء أن ينام أو يمدد ساقيه فيها. سمعت إحداهن تقول: "لابد أنها أنطوانيت المتهمة بجريمة الكنيسة". استدعتني المديرية وتدعى نهى صالح. كانت أبعد ما تكون عن السجّانة الظالمة، وهذأت من روعي. قالت لي المحامية سيده حبيب، أن القاضي فرض أن أبقى محتجزة في زنزانة عشرة أيام كي لا أخضع لأي تأثير قبل الاستجواب، لكن أقسى ما في هذا السجن الانفرادي أن الزيارات ممنوعة عليّ. ذات يوم، وفيما كنت لا أزال في الزنزانة الانفرادية، جاؤوا لأخذي لأدلي بشهادتي، فلم أستطع إرتداء حذائي. مرة أخرى اقتادوني إلى عجلتون، وهناك التقيت بالمتهمين بقتل الكاهن. ثم أعادوني إلى زنزانتني.

ازداد التهاب قدمي تفاقمًا، فجاءت المحامية لرؤيتي مع طبيب شرعي، فسمحوا لي بالنوم على سرير إحدى الحارسات، لأن زنزانتني ضيقة جداً، ولا أستطيع النوم فيها إلا متكومة على نفسي. وسجّل الطبيب ملاحظاته، بالنسبة لآثار التعذيب. تم تمديد فترة اعتقالني لعشرة أيام إضافية. وفي اليوم التالي أنت راهبة برفقة ممرضتين، وقالوا لي أنه يجب أن يُصار إلى شق قدمي، ولن يتم اللجوء إلى أي مخدر.



وفي اليوم الواحد والعشرين، لم يوقع القاضي على نهاية سجنى الإفرادى. وفي اليوم الثالث والعشرين، أعلمت أنه بات لدي الحق في الدخول إلى غرفة السجناء، ومن بعدها رؤية أهلي. توجهت إليّ أنظار النساء العشر، وسمعتهنّ يهمنّ: "إنها القوات المتهمة بتفجير الكنيسة". أتى أخي جاك وأمي ومحاميتي لزيارتي، فقلت لأمي أنها هي المخطئة، فهي التي ربنتني على عدم الكذب والدفاع عن النفس.

يحق لكل واحدة منا برقع ساعة في الحمام، وفي الليل تطوى الأفرشة قليلاً لترك فسحة للمرور، فلا أستطيع ثني ساقي، ويصعب على السجناء في الظلام تجنب الارتطام بقدمي المريضة. لا بل أن إحداهنّ، وبسبب الحقد الذي تكّنه للقوات اللبنانية، تعمدت إيذائي والإنتقام لنفسها من بؤسي عبر ركل رجلي كلما مرّت بجانبني.

الحياة داخل السجن نموذجاً مساوي مصفر عن الحياة خارجها: هناك الأخيار والأشرار والحاقدون والذين في قلوبهم رافة. نفرش أكياس بلاستيك على البلاط ونبسط فوقها الطعام، المكان ضيق جداً لدرجة أنه يجب أن نوسّع الخطى فوق الطعام لكي نتحرك.

جاءت لزيارتنا مندوبتان عن "مؤسسة دار الأمل"، واقترحتا علينا مشروعاً لمحاربة الأمية، فهتفت عندئذٍ "أعيدوا لنا إنسانيتنا أولاً. فليسمح لنا على الأقل الجلوس أمام طاولة لتناول الطعام كسائر البشر". استطاعت المرأتان الحصول لنا على إذن باستعمال الطاولات والكراسي.

تلقيت زيارات أخرى أثرت بي. زيارة الأب سامي، وهو راهب من رعية كفرعبيدا، وحبيب الفغالي، رئيس المجلس البلدي في القرية، الذي وافق أن يشهد لصالحني في المحكمة وشقيقته وجماعة المبشرين في مستيتنا... شكل أبناء قريتي وفوداً وذهبوا برفقة أهلي إلى البطريرك الماروني للمطالبة بإطلاق سراحني.

في 7 تموز 1995، أدخلت إلى المستشفى بعد أن عجزت عن الحراك، وكان يتوجب على أهلي دفع النفقات الطبية. ساقيّ أصابهما تصلب في المفاصل بسبب جلسات التعذيب. كان أخي أنطون يصرّ على المجيء لزيارتي، إلى أن أصيب بجرحة قلبية لدى خروجه من عندي، وبعد ذلك بات يصطحب أمي لتزورني ويبقى هو في السيارة، وعندما جاء أبي لزيارتي سمع أمي تقول: "إخفي



ساقك حتى لا يراها"، فظن أبي بأنهم بتروا لي ساقني فأصبح كالتائه، فلزم كوخ الحديقة وامتنع عن استقبال أي كان، وقرر أن لا يعود لرؤيتي.

وعدوني بصدور قرار المحكمة، وعرفت أنه قريب. وذات يوم أثناء النشرة الإخبارية، سمعنا مذيع الأخبار في المؤسسة اللبنانية للإرسال جورج غانم، يعلن أن عقوبة الإعدام صدرت بحق عدد من المتهمين في جريمة إغتيال الكاهن في عجلتون. لا أعرف إذا كنت سمعت إسمي، لأنني فقدت الوعي. ومن جلسة لأخرى، سكنني هاجس وحيد؛ إعلان براءتي. وها قد عيّن ذلك اليوم، في 6 كانون الثاني 1997.

عشية صدور الحكم، عمدت إلى توزيع قسم كبير من أغراض الشخصية، بالتساوي على السجينات. فجأة، رأيت عبر كوة الباب محاميتي تقترب، فأنبأني شيء ما في ملامحها، بأنها تحمل لي أخباراً سيئة. وبعد انقضاء ربع ساعة، أرسلت المديرية في طلبي وقالت لي: "إجلسي لدي ما أقوله لك... إن صدور الحكم قد أرجىء". دخلت أخواتي داعمات، فقلت لأمي: "علمتينا أن لا نكذب أبداً، فقولني لي الحقيقة". علمت عندئذٍ من والدتي، بأنه حُكم عليّ بالإعدام وأن الحكم قد حُفّف إلى السجن المؤبد.

دخلت في غيبوبة، على أثر الصدمة. أردت أن أتكلم لكن أي صوت لم يخرج من حلقي. أردت النهوض لكن ساقني لم تطاوعاني.

تحركت المنظمات المسيحية والمسلمة غير الحكومية مظهره اهتمامها بقضيتي. لكنني فقدت كل أمل وما عدت أؤمن بعدالة البشر. مرّ شهر وأنا كنت قد فقدت النطق. وجدت القوة اللازمة لأمزق كتاب طلواتي، فإذا كان الله قد تجاهلني هو أيضاً، فأني عون تبقى لي. لكن إيماني تغلّب على ما أقيسه من محنة واستطعت التماسك من جديد.

بعد أسبوعين، أرسلت المديرية في طلب أحد الأطباء. حاول أن يحثني على النطق ببعض الأصوات، فغادر باكياً. طلبت منهم الإتيان لي بقلم لأكتب. إنجلف حلقي بسبب الجهد الذي بذلته لإخراج صوت واحد ولم أستطع. أخذت مسبحتي لأهدئ من روعي. كنا في زمن رمضان، وقد عفوت حين بدأت رفيقتاتي المسلمات بالصلاة. رأيت السجينات يبكين ويتقاذفن من حولي ويقولن: "أنطوانيت أنطوانيت، لقد نطقتي أخيراً، لقد ناديتيه بـ "يا رب"!".



قرع أهلي جميع الأبواب، من منظمة العفو الدولية التي كانت أبدت سابقاً اهتماماً بقضيتي، إلى رئيس الحكومة رفيق الحريري، وإلى رئيس الجمهورية وجميع المسؤولين. وتدفقت الرسائل من العالم أجمع إلى سجن بعبداء. كانت هذه الرسائل أنيستي في وحدتي، حتى أن رجلاً فرنسياً اعتقل خلال الحرب العالمية الثانية، خطر في باله أن يكتب من أجلي رواية متسلسلة ليقوي من عزيمتي ويجعلني أصمد من رسالة لأخرى.

من خلف قضبان سجنني أتى العالم كله إليّ، وكان الأمر عجائبياً.

## الفصل الخامس: نحو الحرية

بقي أمامي شهر قبل أن أستدعى إلى المحكمة. ذهب صهري وأخوتي لرؤية الأستاذ بدوي أبو ديب، وهو محامي شهير، وافق على الدفاع عني، لأن الحكم الصادر بحقي، كان غير قانوني بحسب رأيه. ذهبت السيدة بوزير، المسؤولة عن مركز تأهيل المدمنين (إم النور) برفقة المطران غي نجيم، لزيارة عائلة الكاهن الذي قتل في عجلتون، وكذلك الآباء الأنطونيين، أي الرهبنة التي كان ينتمي إليها الأب سمعان. بفضل جهود كثيرة بذلها الأهل والمعنيون، والآباء الأنطونيون، تمكّنا من الحصول على إسقاط الحق الشخصي. وعلى إثر صدور حكم الإعدام بحقي، إلتقيت بشركائي في الإتهام، أي سعد ورشيد، وأخبروني عن كمية العذابات التي كابدوها والتي أجبرتهم على الكذب واتهامي في الجريمة. أدركت معاناتهم التي تكبدوها، لأنني أنا نفسي كنت قد تكبدتها.

قدّم المحامي طعناً في محاكمتي. جرى حكم الاستئناف في محكمة التمييز في بيروت، وكانت منظمة العفو الدولية قد كتبت تقريراً بعنوان "أنطوانيت شاهين، ظلم وتعذيب". رُفع هذا التقرير إلى كل محاكم البلاد وتحديداً إلى القاضي عدنان عضوم.

بسبب عدم رؤيتي الشمس، بدا جلدي شفافاً وعروقي نافرة. ثم أتى يوم استدعاء الشهود في المحاكمة الأخيرة. كان الاستجواب قاسياً، مقتضباً، في شكل سؤال وجواب، إلا أن محققاً من مخفر جونه كان بين الشهود في ذلك النهار، فروى ببساطة التحقيق الذي أجراه معي، وقال إنني بدوت له بريئة أثناء التحقيق، وأضاف أنه يعرف عائلتي وأنه من المستحيل أن أتورط في قضية تتسم بهذه الفظاعة. من بعدها، أتت جلسة المرافعة، فنهض السيد أبو ديب وبدأ الكلام، وكلما استرسل



في المرافعة شعرت بأنه يقول الكلمات التي أحلم أن أنطق بها عن أخي جان. عندما أنهى مرافعته، اندفعت وقبلته من كل قلبي، وقلت له أنه قلما يهمني بعد اليوم إذ كنت سأخرج من السجن أم لا، لأن الجوهريّ قليل، ولا أحد يستطيع إنكار براءتي من الآن وصاعداً.

حُدّد موعد إصدار الحكم في 24 حزيران، أي بعد شهر واحد من المحاكمة.

كانت السجينات مقتنعات بأنني سأخرج من السجن، أما أنا فلا أجرؤ على الأمل، وأعرف أن العدالة لا يمكن الوثوق بها في ظل هذا النظام المستحکم بلبنان. لم أخف في حياتي كما خفت في ليلة 23 حزيران 1999. ارتدت زميلاتي المسلمات أوشتهنّ البيضاء وأخذنّ في الصلاة ترافقهنّ المسيحيات اللواتي كنّ يسبّحن. كان القانون يحظر عليّ حضور الجلسة، فمن سيأتي لإبلاغني الحكم هذه المرة؟

عند الساعة الواحدة سقطت على ركبتيّ. سمعت همساً مديرة السجن تهتف لمرتين "هل هذا أكيد؟". سمعت أنني بريئة، فطوقوني وعانقوني إلى حد الاختناق وبكوا. وأنا عانقت، بدوري، الجميع وبكيت، وقلت "الله كبير... الله كبير".

كانت أخواتي ينتظرنّ الحكم من قرب قصر العدل، فاندفعنّ بجنون عند معرفتهنّ ببراءتي. وصل الصحافيون ووصل أهلي، حتى أخي جاك وأنطوان أتوا، وأطلقت النساء الزغاريد وامتلأ السجن ضحكاً وصراخاً. لم أكد أنهي نزول الخمس أو الست درجات التي تقودني إلى الباحة، حتى صرت إنسانة جديدة، وتذكرت الكلمات المحفورة على حائط زنزانة التعذيب: "كل من يدخل السجن ميت، وكل من خرج منه ولد من جديد".

## الفصل السادس: تعلّم الحياة من جديد

كان خروجي من السجن أشبه بدوار. مرّروا لي هاتفاً خليوياً لا أعرف كيفية استعماله. لا بد أن العالم تغيّر بشكل غريب خلال هذه السنوات الخمس.



مخابرة من لندن، من سكرتيريا منظمة العفو الدولية لتهنئتي على خروجي من السجن. وكانت السيدة بوز تتحيّن مروري في ساحة عشقوت حيث كان المطران نجيم ينتظرنا في المطرانية. ارتمينا متعانقتين الواحدة في أحضان الأخرى. ثم اقتادتنني إلى المطران الذي ساندني دائماً دون أن تتسنى لي رؤيته أبداً. ومنذ أوّل لقاء لنا أصبح المطران نجيم، مرشدي الروحي، قدّم لي النصائح الثمينة لكي أتخطى عقبات حياتي الجديدة.

بقي الجيران في منزلنا حتى وقت متأخر من الليل، وأمطرتني الصحافة بالأسئلة. كنت منهكة أستحمّ حتى أغسل عني كل هذه السنوات المتسخة والملتصقة بجلدي.

في اليوم التالي، حدثت لي أمور غريبة: لم أكد معتادة على نور الشمس. أوصاني الطبيب شراء نظارات سوداء وملابس تغطي الجسم بانتظار أن يعود الفيتامين إلى جسدي. تلقيت هدايا عديدة بمناسبة خروجي وأقيمت الإحتفالات والقداديس على نيّتي. شعرت بالرغبة في مواصلي التحصيل العلمي، والقيام بنشاطات مناهضة لعقوبة الإعدام ومساعدة السجناء في الوقت نفسه.

في شهر تموز، تلقّيت رسالة من منظمة العفو الدولية تدعوني فيها إلى لندن لزيارة أمانة سر المنظمة، فطلبت منهم أن يسمحوا لوالدتي بمرافقتي فوافقوا، حيث استقلّينا الطائرة المتّجهة إلى لندن سوية. كما دعاني رئيس التضامن المسيحي العالمي بدوره إلى منزله برفقة والدتي. توجه إلى أولاده الخمسة قائلاً: "أخبركم دوماً قصصاً حزينة عن البشر المعذبين. اليوم سأخبركم قصة جميلة، قصة امرأة دفعها إيمانها لأن تهدم جدران سجنها".

في لندن، استقبلت المطر لأول مرة منذ خمس سنوات. تلذّذت بهذا المطر وتبلّلت بالماء والدموع. عدت إلى لبنان فلاحقني المطر، ولاحقني الصحافيون، ووصفتني مجلة المسيرة بـ "سفيرة المضطهدين". أما كل ما تمنيته فعلاً، فكان متابعة دراستي في الحقوق التي حالت صعوبات كثيرة دون مواصلتها. تحدّث وائل خير في الموضوع الى رئيس جامعة الروح القدس في الكسليك، ولحسن حظي وهبتي الجامعة منحة فوراً.



بعد فترة قليلة، في الأول من كانون الثاني 2000، دعاني مطران الطائفة السريانية ميخائيل جميل إلى الفاتيكان للإحتفال بيوبيل البابا. كنت في السجن عندما أتى يوحنا بولس الثاني إلى لبنان، وها أنا أزوره في عقر داره بكل بساطة.

هناك، أهداني أحد الكهنة مسبحة دون صليب فقلت له إنها مسبحة ناقصة، فأجابني بأن لا شائبة تشوبها وإني لا أحتاج لأعلق صليباً فيها لأن صليبي أحمله في داخلي. أراحت زيارة روما أعصابي المتعبة، وعدت إلى لبنان وقد عادت إليّ الطمأنينة.

عدت قبل بضعة أيام من حلول 24 حزيران؛ اليوم الذي أطلق فيه سراحني. ها قد مرّت سنة وأنا حرّة طليقة؛ هذا هو عيد مولدي الحقيقي، أرغب في الإحتفال به مع أفراد عائلتي ومع أفراد الجمعيات الذين ناضلوا من أجلي ومن خلالي لنصرة العدالة. وبدأ استدعائي بإطراد لأدلي بشهادتي في المحاضرات والبرامج والتحقيقات التي تُعنى بحقوق الإنسان في لبنان والعالم وأسعدني القيام بذلك لأساهم ولو بقليل بمساعدة الآخرين.

تلقيت رسالة من جمعية "معاً ضد عقوبة الإعدام" تدعوني للذهاب إلى ستراسبورغ للمشاركة في المؤتمر العالمي الأول للجمعية. افتتح المؤتمر بثلاث شهادات أدلى بها سجناء من بلدان مختلفة. "كيري كوك" أميركي أمضى 22 عاماً في السجن من أجل لا شيء، "ساكاي ماندا" ياباني حُكم عليه لمدة 34 سنة في السجن أمضاها بكاملها فيما كان بريئاً، وأنا بسنواتي الخمس التي أمضيتها في السجن. أعلن المتحدثان، أن حكومتيهما قدما لهما تعويضات مالية كبيرة، بينما أذكر أن الأستاذ بدوي أبو ديب قد اقترح عليّ ان أرفع دعوى للمطالبة بحقوقني، لكنني آنذاك لم أشعر إلا برغبة واحدة ملحّة وهي أن أنتهي من كل المحاكم.

جاء دوري لأدلي بشهادتي وقد كنت متأثرة للغاية، فبكيت وبكت الصالة كلها معي. انتهت السهرة بعشاء بحضور السيدة سيمون عثمانى التي كانت متزوجة من أحمد عثمانى؛ أحد المحكومين السابقين بالإعدام، وكانا قد أسسا بمفردهما جمعية "الإصلاح الجزائي العالمي". كان جورج عساف هناك أيضاً برفقة زوجته، فأدركت أنه بإمكانني أن أمضي حياتي كلها برفقة هؤلاء الأشخاص الملتزمين الذين عاشوا قصصاً مشابهة لقصتي... في نهاية المؤتمر، وقّع برلمانيون من العالم أجمع على عريضة ضد حكم الإعدام في البرلمان الأوروبي.



بعدها اقترح عليّ القسم الفرنسي التابع لمحكمة العفو الدولية تمديد اقامتي للإلتقاء بأعضائها في باريس حيث قيل لي أن سيدة تدعى راشيل تنتظرنني وقد قطعت مسافة طويلة لرؤيتي. رأيت أيضاً رجلاً يقترب مني قائلاً : "أنطوانيت" ؟ وانهار باكياً، إنه "إيفان ترافي" رئيس الحركة المسيحية لإلغاء التعذيب. كان إيفان قد كتب لي رسائل عدة وخاض من أجلي حملة حقيقية، كما عاد ودعاني لأدلي بشهادتي خلال لقاء للحركة. ومنذ ذلك اليوم، حملت عصا الحج ودرت في أنحاء فرنسا كلها لأشهد بلا كلل، كما في أستراليا والعديد من المدن والدول في زوايا المعمورة.

عما قريب، تأتي العطلة الصيفية وأنا لا أحلم إلا بالرجوع إلى لبنان بعد أن أمضيت سنتي الجامعية الأولى في فرنسا بنجاح.

لدى عودتي إلى لبنان اعتقد الناس أن لي القدرة التامة على المساعدة، فطلبت الجمعيات مساعدتي، وتوجهت إليّ الأمهات أملاً بالحصول على تأمين النفقات المدرسية لأولادهن بالرغم من أنني لا أستطيع القيام بالشيء الكثير، لكن تحديهم أعطاني اندفاعاً وقوة لا مثيل لهما. وعما قريب أنا متأكدة أنني سأتمكّن على الأقل من مساعدة السجينات.

طيلة هذه الفترة، اعتقدت بأن لا رجلاً في حياتي. لا أزال أعاني من الصدمة التي أحدثتها فيّ سنوات السجن. حتى أنني لم أنتبه للرجل الذي كان يأتي لاستقبالي على المطار في كل مرة أعود فيها إلى الوطن. يشكّل جوزيف جزءاً من حياتي منذ أربع عشرة عاماً على الأقل. تزوّجت أختاي من أخوين من عائلة صليبا هو ثالثهما، وهم رجال بالمعنى النبيل للكلمة ومثال في الإستقامة والنزاهة والشجاعة عند المحن.

ها قد بدأت حياة جديدة. قرّرت كتابة قصتي لأقلب الصفحة نهائياً. أدرك أنني مهما فعلت، فسوف أهجس بماضيّ على الدوام. لكن تغريني فكرة أن أضع كل شيء في كتاب وأرتاح. على أية حال، لم يعد هناك من مكان للتعاسة. لا أعيش إلا من أجل جوبا ورواد، وجوزيف.



## اليوم

بعد سلسلة الاغتيالات التي جرت عام 2005، ورفع الستار عن كل أعمال التعذيب في العراق ووحشية ما يجري في هذا العالم، شعرت لوهلة أن نشر هذه الشهادة ليس مبرراً. ملأنتني ولادة جويا ورواد سعادة وأوشكت أن أقلب الصفحة السوداء في حياتي وأمحو منها كل أثر باق.

عندما أُطلق سراح سمير جعجع، ذهبت لزيارته في الأرز وتهنئته بالسلامة. أخبرته أنني رأيت عينيه معصوبتين لحظة اعتقاله، فاغرورقت عيناه بالدموع مؤكداً لي أن ذلك هو النهج الذي تتبعه أجهزة المخابرات للضغط على الناس. استطاع أن يحدّد بالذات موقع الزنزانة التي اعتقلوني فيها في وزارة الدفاع بمجرد أن ذكرت عدد الخطوات والإنعطافات التي يستغرقها المسير للوصول إليها وأنا معصوبة العينين. عند خروجي من السجن، جاءت ستريدا زوجة سمير جعجع لزيارتي وكانت لحظة تأثر شديد تشاركنا فيها الألم نفسه، وأكدت لي أنه لو وقعت آنذاك على الشهادة الباطلة التي قدّموها لي لورّطت حياة جميع الذين استُهدفوا عبري.

أسلم هذا الكتاب كنقطة ماء في البحر. عسى أن يقوّي من عزيمة هؤلاء الذين فقدوا كل أمل. عسى أن يغيّر الذهنيّات الفاسدة في هذا البلد الذي لا تزال الحرب تسحقه سرّاً، حيث يُعتدى على الإنسان بلا سبب وجيه ويتعرّض الناس للتعذيب في الخفاء. عساه يتيح لأولادي أن يعيشوا أياماً أفضل.

أنطوانيت شاهين، جرمي البراءة، دار النهار للنشر، بيروت، كانون الثاني 2007.

بما أن التثقيف السياسي هو زوادة الفكر والمعرفة، نضع بين أيديكم ملخصاً لكتاب النشاطة الحقوقية أنطوانيت شاهين بعنوان "جرمي البراءة" ليكون مادة للمعرفة والنقاش والتفاعل.